نسرين فهمي

عُذرًا يا أميري

دخلَ ليلاً حجرة والدته، إنه اليوم الرابع لرحيلها وهو ذاته اليوم الأول لوحدته دونها. فاليوم انفضّ من حوله المُعزّون وتباعدت عنه كلمات الشفقة والعزاء التي لا تُسمن من جوع. بدأ ينظر في كل مكان كانت تجلس فيه وتساقطت دموعه دونَ صوت يُذكَر..

شعر بالبرودة والخوف الممتزج بالأسى والحسرة على كل يوم ضاع منه دون أن يُقبّل يديها، وعلى كل الأيام التي كانا يختلفان فيها ويعلو عليها بصوته متوجهًا لباب الشقة، ضاربًا بمشاعرها عرض الحائط، وأخذَ يلف ذراعه حول نفسه ويحتضن ذاته ليُهدّئ من روعه وليُخرج نفسه من هذا الإحساس. فلم يعد هناك من يحتضنه، ثم استلقى على فراشها وأخَذَ يبكي بكاءً شديدًا راح أثَرُه في غفوة صغيرة.. ومرت لحظات حتى استيقظ فأخذ يتذكرها وهي تجلس في حجرتها على تلك الأريكة باهتة اللون، وتذَكَّر عندما سألها ذاتَ يوم، ماذا تكتبين يا أمي؟ فقالت له: إنني أحدث نفسي وأشكو نفسي لنفسي.. تذكَّر ابتسامتها وهي تحمل تلك الأوراق واضعةً إياها في الدرج المجاور لها قائلة له وهي تحتضنه وتضع علي جبينه قبلةً حانيةً: "إن هذا ليس هو المهم، بل المهم أن تحكي لي عن يومك يا أميري." فتح الدرج وأخرَجَ تلك الأوراق ليقرأ منها.. ولدي العزيز،

الآن وقد بلغت من العمر الثانية عشرة، يحزنني أنني لا أستطيع التحدث معك فيما أفكر فيه، فقلبي يعتصر من شدة الخوف عليك، واحتار عقلي ووهن من كثرة التفكير..

عُذرًا يا أميري الصغير، عُذرًا يا أحب الناس وأغلاها لي، عُذرًا فلا أعلم إن كانت قد غَرتّني كلماتُ الثناء وأحببتُه.. فقد كنت أرى أنني كما يقولون أمٌ مثاليةٌ تحاوط على ابنها. قد لا أكون مخطئة فيما مضى، ولكنني الآن أشعر بالخطأ في استمرار فعل ما مضى... قد لا أكون مذنبة في وضعك أول اهتماماتي، وجعلك تعيش داخل فقاعة أقف على بابها حارسةً لك، حتى أعطيك الأمان والحنان! نعم كنت أجعلك تنفتح على العالم وأنت بين أحضاني.. لا أُخفيكَ سرًا.. كم تمنيت أن تبقى ذلك الطفل الرضيع المتشبث بي، وأن أضعك داخل عينيّ وأغلقهما عليك.

كم بكيت وشعرت أنني مذنبةٌ في حقك، وكم راودني شعورٌ بأنني أنانيةٌ. فقد كنت أستمتع برؤيتي لك أمام عيني.. كنت تملأ وجداني الفارغ وأنا أراك تتعلق بي أكثر فأكثر.. كنت تُشعرُني بقيمتي وأهميتي في هذا الكون.

ثمة إحساسٌ لم أشُعر به من قبل... أعلم أنَكَ تطمئن لوجودي في حياتُكَ، وتستمتع وتهدأ نفسك لهذا الإحساس. وتواجدي حولك ومعك يعني لك الكثير.. ولكن ما لا تعرفه أن وجودك، أنتَ، في حياتي، يعني لي الأكثر والأكثر... إن كُنتُ أنا أمانُكَ، فأنت الأمان والراحة والسكينة. وأعود لأهدّئ من نفسي، فإذا عاد بي الزمان، فلن أفعل إلا ما فعلته.. فأنت نورُ العين وقطعةٌ من القلب، فكيف لي أن أجعلك تحيا دون رعايتي؟ قلبي ينزفُ دمًا وأنا أراكَ عاجزًا عن

مواجهة العالم بدوني. لأنني ظَلَلتُ أواجه بدلاً عنك لسنوات وسنوات.

وياليت الحياةَ تسير على الوتيرة التي اعتدناها.. ولكنّ التغيير هو أحد السنن الكونية، ولأننا قد ألْفنا ما نحن عليه. فقدنا رغبتنا في تغييره، وهذا ما يجعلنا لا نُلاحظ تدرّجه خلسةً في حياتنا. فأنت يا أميري أصبحت تستطيع الوقوف غير متكئ عليّ، وتستطيع الآن الُبعد عني لساعات وساعات، وأصبحت لابد أن تواجهَ كل المواقف التي تُوضَع فيها دون أن تنظر لي في عينيّ. أراكَ تُحاول جاهدًا التعايش مع هذه الحياة.. أشفق عليك وأنا أراك لا تستطيع الخروج من فقاعتي.... ولكنني الآن أشعر أنني لابد وأن أغير من أفعالي معك. إن لومي لنفسي فقط، لن يغير من الأمر شيئًا، وإنه حقًا قد جاءَ وقتُ التغيير. لا أستطيع أن أدافع عن ذاتي لأنني لا أومن بأن النية فقط هي الكافية في هذه الحياة، فماذا تُفيد سلامة نيتي وأفعالي تؤذيك؟ إن الفعل إن لم يتماشي مع النية فحتمًا النتيجةُ خاطئة.

حاول الابن أن يُجاهد نفسهُ مسترجعًا هذه الأيام، وكيف كان ينظر لمحاولاتها معه في الاعتماد على نفسه، على أنها قَسوَةٌ ومحاولةٌ منها للتخلص من مسؤوليته... فعَلمَ أنه كان دائمًا ما يفسر أفعالها معه بالشكل الخاطئ.. وأن ما كانت تفعله طوال حياتها، يحمل دائمًا في طياته المودة والرحمة والحنان.

ثم أكمل كلماتها: "عَذرًا يا أغلى الناس، فقد أجبرتني الحياة أن أجعلك تتلمسها وتمر بكل ما فيها ولا أقول لك سوى كلمات؛

تارة باللين وتارة أخرى بالشدّة، محاولة إنقاذك من أي ألم قد ترسله لك الحياة... ولكنني سأظلُ حولَك أترقبك بعيني وسأحاول حمايتك بدعائي وصلاتي، فهم عند ربي ليسوا مجرد كلمات! فاعذرني إن أخطأت، فلا أظُنُ أنني سَأُحسن التصرف بقدر حبي لك.